جدلية الدائرة العربية مع الدائرة الإسلامية
من الوجهة الجيوسياسية والجيو استراتيجية والحضارية

في هذه الساعة التي أعانق فيها الموضوع، أصخت السمع إلى تعليق صدر عن إذاعة لندن حول الانتماء الحضاري لتركيا كأسباب دعت إلى رفض قبولها في الأسرة الأوروبية، وهنا تذكرت مقولة ريمون بولان المدللة: "بأن الدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها، فأفصحت عن نفسها في مؤسسة أو مؤسسات"[1].

وفي الوقت نفسه تذكرت مقولة هنتجتون الذائعة الصيت حول تقسيمه المسكونة إلى ثماني حضارات، ثم استشرافه واستشفافه لأحداث المستقبل على أساس الصراع بين هذه الحضارات.

ومرة ثالثة تذكرت مقولة فوكوياما المدللة بنهاية التاريخ، وأن مركبة الغرب بقيادة الولايات المتحدة هي التي تقود قاطرة العالم، وأخيرا محاولة إسرائيل –بخطاب بيريز الشرق الأوسط الجديد- أن يكون لها خطاب عالمي محمول على ثقافتها التلمودية الممزوجة بالفكر القومي الاستعلائي المستقى من الفكر القومي الشوفيني الأوربي.

وبالطبع فالفعل الحضاري العربي لا يعدم وجود لمعات بازغة استشرفت فاستشفت آفاق المستقبل وأبعاده الاستراتيجية العميقة، ومن هؤلاء الدكتور جمان حمدان والدكتور كوثراني والمفكر الكبير مالك بن نبي، وسواهم.

وعلى صعيد التنظير الإيديولوجي، يمكن القول إن الرئيس جمال عبد الناصر استطاع أن يكسب قصب السبق في هذا المجال من خلال ربطه ربطا محكما بين العروبة والإسلام، ثم ربطه بين الدائرة العربية والدائرة الإسلامية، وإبرازه أهمية الدائرة الإفريقية بالنسبة لمصر.

وفي هذا الصدد لابد من تسجيل الملاحظتين الآتيتين:

1 - عندما تكلم الراحل عبد الناصر عن الدائرة العربية قصد بها مدلولا حضاريا وثقافيا لا جغرافيا فحسب، أي قصد منها الأمة العربية كشخص جماعي تاريخي ثابت وفاعل ومستمر، وله خصائصه الخاصة ودوره ورسالته المعينة عبر التاريخ.

2 - إن إبراز الدائرة الإفريقية لا يعني الخضوع لطغيان الجغرافيا وحتميتها، وإلا كان بإمكان عبد الناصر أن يتكلم عن الدائرة المتوسطية، على خلاف ذلك فالدائرة الإفريقية بالنسبة لعبد الناصر والأمة العربية ذات مدلول حضاري وثقافي وروحي وجيو سياسي وجيو استراتيجي وجيو تاريخي لسبب بسيط هو أن ثقل العرب في إفريقيا، إضافة إلى أن هنالك كتلة لا يستهان بها من المسلمين في هذه القارة.

ماذا تحدث عبد الناصر عن هذه الدائرة؟؟؟.

[1]- كتابه الأخلاق والسياسة، ترجمة د. عادل العوا، دمشق، دار طلاس، 1987، ط1، ص301.

يقول عبد الناصر[1]: هذا عن الدائرة الأولى التي لا مفر من أن ندور عليها، وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقاتنا، وهي الدائرة العربية، فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية، وهي دائرة القارة الإفريقية، قلت إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الإفريقيين... لا نستطيع لسبب هام وبديهي هو أننا من إفريقيا.

ثم تبقى الدائرة الثالثة....الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات والتي قلت إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات.

ولقد ازداد إيماني بمدى الفاعلية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامي بين جميع المسلمين.

واستطرد عبد الناصر القول في فلسفة الثورة متعرضا لمسألة الحج لا على أساس أنه تذكرة لدخول الجنة، بل كقوة سياسية ضخمة ومؤتمر سياسي يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجال الرأي فيها وعلماؤها في كافة أنحاء المعرفة وكتابها وملوك الصناعة فيها، وتجارها وشبانها ليضعوا في هذا البرلمان الإسلامي العالمي خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونهم حتى يحين اجتماعهم من جديد بعد عام... يجتمعون خاشعين ولكن أقوياء.... مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين احتلاله في هذه الحياة.

ويستطرد قائلا: وحين أسرح بخيالي إلى المسلمين في الهند والصين والملايو وسيام وبورما والباكستان والاتحاد السوفييتي، إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة، أخرج بإحساس كبير بالإمكانات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون هؤلاء المسلمين جميعا، تعاونا لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة.

هذا التأسيس للإسلام تأسيسا محمولا على العروبة كركن أساسي فيه يذكرنا بتأسيس عبد الرحمن الكواكبي في كتابه أم القرى، إذ دعا إلى رابطة إسلامية يلعب فيها العرب دورا هاما بحيث يكون الخليفة منهم[2].

وهذه العلاقة بين الدائرة العربية والدائرة الإسلامية، تكلم عليها الدكتور كوثراني والمفكر الكبير ابن نبي، صاحب خط طنجة- جاكرتا، ذلك التأسيس السياسي على الفاعل الحضاري الذي هو الحضارة الإسلامية، وبالتالي ففي إطار الدائرة الإسلامية الكبرى، هنالك خصوصيات حضارية عربية وغيرها.

هذا وإن أي قبض على القدرة في أية ظاهرة من ظواهر المتكون الاجتماعي أو الطبيعي، هذا الأمر لايتم إلا بسبر تلك الظاهرة والقبض على مفتاحها، وهكذا تغدو الحاجة ملحة لتقديم تحليل سريع في

[1]-فلسفة الثورة والميثاق، دار القلم، بيروت1970.

[2]- د. رضوان السيد: الإسلام والانتماء العربي، مقال منشور في مجلة العربي الكويتية، عدد آذار1957 .

لاند سكاب "اللوحة الطبيعية" للعالم الأسيوي والإفريقي الذي تتواجد فيه الدائرتان العربية والإسلامية[1].

- الصين.
- مجموعة بلدان الشرق الأقصى المسماة بالجيل الأول للبلدان حديثة التصنيع وهي أربع: كوريا الجنوبية –تايوان-هونج كونج- سنغافورة، وهذه المجموعة تنتمي بشكل عام إلى العالم الصيني بتراثه الكونفوشيوسي.
- مجموعة بلدان جنوب شرق آسيا المسماة بالجيل الثاني للبلدان حديثة التصنيع، وهي أربع:
- أندونيسا: 90% من سكانها مسلمون.
- ماليزيا: 55% من سكانها مسلمون.
- الفلبين: أقلية إسلامية كبيرة.
- تايلاند: أقلية إسلامية ضعيفة.
- شبه القارة الهندية، حيث الهند، ثم الدولتين الإسلاميتين باكستان وبنغلادش.

وبعد اليابان والعالم الصيني وشبه القارة الهندية كملامح بارزة على تضاريس آسيا نجد أمامنا العالمين الفارسي والتركي،/ وكلاهما إسلامي.

فأما العالم الفارسي فإنه يتدرج من هضبة إيران ليغطي أجزاء من آسيا الوسطى لاسيما من بلاد الأذريين /أذربيجان/ وبعض بلاد الأفغان.

وأما العالم التركي، فيغطي تركيا نفسها ومناطق آسيا الإسلامية المنتمية إلى الأصل التركي، ومنطقة الثقافة التركية بالمعنى الواسع، والتي كانت تندرج ضمن ولاية الاتحاد السوفييتي.
- العالم العربي ويضم منطقة الخليج وشبه جزيرة العرب والشام بالمعنى الواسع، وأهم المعالم التاريخية –السياسية هي: الأراضي الحجازية- اليمن- العراق- سوريا التاريخية- فلسطين التاريخية.
- وتشكل تلك المعالم معا النواة الملتهبة للإسلام والعروبة في آن معا، وبعبارة أخرى، فهي – بالتاريخ- عماد الكتلة العربية الإسلامية[2].

ولكن ما هو بالجغرافيا عماد هذه الكتلة... قاصدين بالجغرافيا، الجغرافيا الطبيعية البشرية، السياسية في آن معا....بالطبع فهذا القول ينقلنا إلى افريقيا.

تشريح افريقيا: معظم العرب افريقيون، ومعظم افريقيا مسلمون.
معظم السكان في افريقيا مسلمون...ومعظم العرب من افريقيا.

ولكن أصل العرب من آسيا "شبه الجزيرة العربية" ابتداء من طرفها الجنوبي الغربي، كما أن البداية الكثيفة للإسلام توزعت بالتساوي انطلاقا من الحجاز بين فارس وشمالي إفريقيا، ومنها إلى ليبيا بالمعنى الواسع أي المغرب العربي الحالي.

ولقد اتسعت دائرة الإسلام في آسيا بجميع اتجاهاتها الأصلية، ولكنها أخذت بالتخلخل ناحية الشرق تقريبا عند حدود الأديان الطبيعية الأسيوية الكبرى: الهندوسية- البوذية- الكونفوشيوسية[3].

---

[1]- أخذت هذه المعلومات من مجلة الساسة الدولية، عدد120 أكتوبر1997، مقال الدكتور محمد عبد الشفيع عيسى الموسوم بعنوان "العالم الإسلامي.. مجالنا الحضاري الجديد" نظرات أولية.

[2]- مقال الدكتور محمد عبد الشفيع عيس الآنف الذكر، ص50.

[3]- المرجع السابق،ص50.

وتحددت دائرة هجرة العرب وعملية التعريب في إفريقيا بشمالها أساسا، ولكن الإسلام انتقل منها بالتجارة في الاتجاهات الأصلية الأخرى، وإن أخذ بالتخلخل ناحية الجنوب.

ولقد انتشر الإسلام بين الحشود الكثيفة لاسيما بين ظهرانيها الممتدة، فكانت غالبية أهله منهم، وتنامى وجود العرب في المراكز المدنية لأفريقيا الشمالية، بينما خفت كتلتهم السكانية في صحراوات شبه جزيرة العرب وبادية الشام.

هكذا أدى تاريخ العرب والإسلام إلى جغرافيا مختلفة، فإذا بنا نجد أن معظم المسلمين في آسيا ومعظم العرب في افريقيا.

ولئن كان معظم العرب افريقيين فإن معظم افريقيا /عدا أطرافها الجنوبية/ إسلامي، فبالإضافة إلى الشمال، نجد أن معظم افريقيا تحت حزام الصحراء الكبرى مسكونة أساسا بالإسلام شرقا وغربا ووسطا، وإن وجود الإسلام باتجاه الجنوب الافريقي بالمعنى الواسع[1].

وهكذا يمتزج الوجود العربي بالوجود الإسلامي، بين ميزان التاريخ وميزان الجغرافيا الطبيعية والبشرية والسياسية، الأمر الذي يدعونا للقول إن مستقبل تجديد الإسلام مرهون بآسيا، ولكن تجديد مستقبل افريقيا مرهون بالإسلام، كما إن تجديد الرابطة العربية مرهون بالغرب /افريقيا العربية/، ولكن تجديد مستقبل المشرق /الخليج وشبه جزيرة العرب والعراق وسوريا وفلسطين التاريخية/، مرهون بالرابطة القومية[2].

وبعبارة أخرى فإن المهمة التاريخية الكبرى لنهضة آسيا وإفريقيا، هذه المهمة المعقدة مرتبطة أشد الارتباط بكل من العروبة والإسلام.

على هذا يمكن التأكيد بأنه لا يمكن أن تتم النهضة في البلدان العربية –المغربية والمشرقية- دون الاعتصام برابطة العروبة، ولا يمكن لهذه الرابطة أن تتعزز وتترسخ إلا عبر الارتباط بحزامها الإسلامي الوثيق، وفضلا عن ذلك فلا يمكن للنهضة في آسيا وإفريقيا –البلاد الإسلامية غير العربية- أن تتم إلا عن طريق تجديدها من خلال الرابطة الإسلامية، والتي هي في تماس طبيعي وتاريخي وروحي مع مركز الإسلام في شبه جزيرة العرب، والذي هو في الوقت نفسه مركز أصل العرب.

هكذا يمكن التساؤل: هل ذلك من مصادفات التاريخ أم موافقاته؟؟...

من جماع ما تقدم يخلص الدكتور محمد عبد الشفيع عيسى لتحديد مسارب الحياة والتقدم والانطلاق باتجاه التطور الارتقائي للقطر العربي المصري[3] -وهو أمر ينطبق في نظرنا على بقية الدول العربية- يحدد دوائر الانطلاق، مؤكدا بأن أولى هذه الدوائر هي العروبة، حيث تمثل استجابة لنداء الماضي ودواعي المستقبل في الآن نفسه مضمونا للتكوين الاجتماعي التاريخي وسياجا حاميا للتقدم الحضاري.

[1]- المرجع السابق، ص50.
[2]- المرجع السابق، ص51.
[3]- المرجع السابق، ص56.

الدائرة الثانية هي الدائرة الوسطى –الإقليم العربي- والوسيطة الإفريقي حيث تلتئم روابط التكوين من الأرض والبشر والممارسة في ثقل عربي، ووجه إسلامي، وتوجه اقتصادي اجتماعي.

أما الدائرة الثالثة فهي دائرة العالم الإسلامي كمجال حضاري أرحب ينبغي أن تتجه نحوه السواعد والعقول، فهو البيت الطبيعي للعالم الثالث، وهو الوريث الموضوعي له، ومن ثم فهو /ضامن/ لحضانة نموذج التطور المستقبلي أو لمشروع النهضة كمشروع مثلث أضلاعه: العروبة، الإسلام، الاشتراكية، الديمقراطية[1].

وبهذه الدوائر المتلاحمة يمكن لنا أن نواجه قيود النظام العالمي القائم والقادم بإمكانية حقيقية للمشاركة المتكافئة فيه، والمقاومة الإيجابية لما يعتمل فيه من اتجاهات معاكسة لنموذج التطور الحضاري المستقبلي.

والعالم الإسلامي بهذه المثابة كدائرة كبرى محيطة بالوطن العربي، وحدة موضوعية اقتصادية اجتماعية، وهو وحدة ذاتية حضارية أيضا، صنعها ماضي الحضارة الإسلامية المشترك التي أسهمت فيها أمم وشعوب اختلفت قومياتها، وتجانست حضارتها من عرب وبربر وزنج وترك وفرس وهنود[2].

وما أشبه الليلة بالبارحة، ففي مطلع العصر الحديث الأوربي غداة كانت القوى الإسلامية الكبرى هي العامل الرئيسي في مواجهة السيطرة الاستعمارية التي تتوسل بالحرب والكشوف والتجارة والاستيطان، وتمثلت هذه القوى في الدولة التركية العثمانية، والدولة الصفوية الفارسية، والمماليك في مصر، والمغول في آسيا الوسطى، ممالك الزنج الإسلامية في غرب إفريقيا، وقد انتهت المعادلة التاريخية عبر ثلاثة قرون من السادس عشر إلى التاسع عشر بتغلب أوربا، فهل تتغلب هذه مرة أخرى –تحت قيادة أمريكا- على نوازع المقاومة الحضارية والنزوع الحضاري المستقبلي للعالم الإسلامي باتجاه الاستقلال والتحرر والتكامل والتنمية[3].

هكذا يتضح من دلالات التاريخ وصبوات المستقبل وكشوفاته أن حسا تاريخيا عميقا، أو بعدا استراتيجيا جيوسياسيا أو جيوتاريخيا للأمة العربية ليس أمامه للتعملق والتجوهر إلا بالدائرة الحضارية العمق والظهر والمجال الحيوي والروحي لأمتنا.

وبالطبع فهذا التأسيس يقوم على سنن الله في الاجتماع والسياسة والحضارة والأخلاق، وليس تكتلا وتعبئة وحشدا ضد الغرب، إذ في نظرنا إن الحضارات –وخلافا لأطروحة هنتنجتون- لا تتصادم في ذاتها، ولكن الإيديولوجيات والمصالح والأهواء الضيقة هي التي تزج الحضارات في أتون التصادم والصراع.

لقد تأسس العالم الغربي على الحضارة اليونانية، ثم الرومانية، ثم العالم المسيحي في القرون الوسطى، وهكذا فحضارة أوربا ذات بعد يوناني مغلف بالمسيحية حسب رأي برنار زعيم القانون المشهور في فرنسا[4].

---

[1]- المرجع السابق، ص56.
[2]- المرجع السابق، ص56.
[3]- المرجع السابق، ص56.
[4]- د. محمد عصفور: الضبط الإداري، جامعة القاهرة، عام1996، ص86.

وإن كانت أوربا قد أينعت وآتت أكلها الثرة من روافدها الطبيعية والمسيحية فلماذا لا يتاح للأمة العربية أن تنطلق من خلال التأسيس الطبيعي لها، ألا وهي الأمة العربية الإسلامية، ومن خلال تفاعلها مع عمقها الإسلامي، أليس ذلك أكثر فائدة وعطاء للشأن العام، على قاعدة دع الزهور تتفتح ولنتبار، وقوله تعالى: "فليتنافس المتنافسون" لإ يتاح للأمة العربية إنتاج المعنى والقيمة؟؟؟ .

إن أية انطلاقة حضارية جبارة، إنما انطلقت من استجابتها الخلاقة مع الحاضر تأسيس تاريخي كبير، وهذا ما حدث للإسلام انطلاقا من الحنفية، وما حدث لليابان انطلاقا من تراث الميجي، وأخيرا ما حدث للثورة الصينية التي تأصلت على الجذر الكونفوشيوسي.

إن التراث –كما يؤكد الدكتور حسن حنفي- جزء من الواقع ومن المكونات النفسية للمجتمع العربي، وهو لذلك لا يزال يحكم إلى حد بعيد سلوك الجماهير، ويصوغ تصوراتها، إذ المجتمع العربي يتميز بأنه مجتمع تراثي لم يتخلص من ماضيه، ولا معنى للعامل العلمي المجرد معه على طريقة المستشرقين، كأن التراث جسم ميت[1].
على هذا الأساس يؤكد الدكتور حنفي أن التراث ليس شيئا متحفيا، أو نمط سلوك ماضوي، بل هو نظرية للعمل وموجه للسلوك وخبرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل إعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض[2].

نحن إذا مسكونون في التراث مستنبتون فيه مبيؤون في تربته، وإن اقتلاعنا من هذا المغرس أو المشتل الحضاري ليس معناه إلا الفوت والتصوح والموت، وبالتالي فإن أي تعامل مع التراث إنما يجب أن يتم من داخل شرعيته، وباستثماره وإعادة تأويله على ضوء إشكالاتنا الفكرية والإيديولوجية الحالية، يقول د.حنفي: إيماننا هو التراث والتجديد، وإمكانية جل أزمات العصر، أو فك رموزه وخطة جديدة نحو التقدم، فالتراث هو المخزون النفسي لدى الجماهير، وهو الأساس النظري لأبنية الواقع[3].

هكذا رسم الدكتور حنفي طريق الثورة الاجتماعية والسياسية، الانتقال من علم اجتماع المعرفة إلى تحليل سلوك الجماهير، أي من العلوم الإنسانية إلى الثقافة الوطنية، ومن الثقافة الوطنية إلى الثورة الاجتماعية والسياسية[4].

على هذا الأساس يندد الدكتور حنفي بمقولات التغريبيين المدللة بأن الغرب هو النمط الأوحد لكل تقدم حضاري، وأنه الممثل الوحيد للإنسانية، وأن أوربا الحلقة المركزية فيه، وهي المعلم الأبدي، والعالم كله في موقع الهامش إزاءها، وأن كل إبداع ذاتي لدى الشعوب غير الأوربية إنما مرده الغرب[5].

وحقيقة الأمر إن الدائرتين العربية والإسلامية تمتلكان رأسمالا رمزيا فذا لا يدانيه أي رأسمال لاسيما في غناه الروحي والقيمي، وفضلا عن ذلك فهما يتموقعان في قلب العالم، لذلك يجب أن يتاح لهما الحضور الإنساني الكثيف في هذا العالم، حيث تزكوان وتورقان وتونعان وتعطيان وتتمخضان عن مخزونهما وكنوزهما الثرة.

---

[1]- ورقة قدمت إلى مؤتمر الفلسفة في الوطن العربي المعاصر: بحوث المؤتمر الفلسطيني العربي الأول الذي نظمته الجامعة الأردنية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عام1985، ص16.
[2]- كتابه التراث والتجديد، بيروت، دار التنوير، عام1981، ص11.
[3]- كتابه من العقيدة إلى الثورة، بيروت، دار التنوير، عام1988، ج1، ص7.
[4]- السيد ولد أباه: التنوير والتأصيل قراءة في أعمال حسن حنفي، مجلة المستقبل العربي، عدد167، عام1993، ص128.
[5]- المرجع السابق، ص128.

ومن جهة أخرى فعلى هاتين الدائرتين أن يغذا السير ويسرعا الخطى، ويحملا خطايا إنسانيا يشرفهما، خطايا يتكلم عن الشخص البشري، ويهجس بالمصير الإنساني المشترك والغايات الإنسانية الكبرى، ويعانق الهم الإنساني، كيف لا وإن عبارة "يا أيها الناس" أول ما انطلقت من هذه الأمة.

ومع ذلك فالدائرتان المذكورتان لا تزالان تعيشان مرحلة رد الفعل دون أن ترتقيا إلى ذروة الفكر الاستراتيجي، أو أن تحملا خطابهما السياسي مسؤولية حضارية.

صحيح أنه كثر لدينا الحديث عن المشروع الحضاري العربي الإسلامي في مجال الفلسفة والاقتصاد والأخلاق، ومع ذلك لانلمس تأثيرا لهذا الفكر في المشروع السياسي[1].

وبيان ذلك –وحسب مقولة ريمون ده يولان- أن السياسي يتأسس على الحضاري، ولكنه في الآن نفسه ينجزه وينتجه.

هكذا تكلم عبد الناصر عن الدوائر الثلاث، كما أنه انخرط –بلورة لذلك- في مؤتمر باندونغ كحدث سياسي يترجم صبوات العالم الثالث، وفي القلب منه آسيا وإفريقيا، وقلب آسيا وإفريقيا الدائرة الملتهبة بالإسلام ألا وهي الدائرة العربية.

لقد كان المقرر لباندونغ أن يكون له ترجمته الحضارية، أي أن يتحول إلى حدث حضاري يؤلف بين الحضارتين الإفريقية والآسيوية وفي قلب ذلك الإسلام الأكثر تألقا وعطاء، هكذا تترجم مؤتمر القاهرة عام1957 عن جائزة إفريقية آسيوية على غرار جائزة نوبل وجائزة لينين، أملا في إنجاز السياسي للحضاري، لكن هذه الجائزة لم تر النور[2].

لقد جمع مؤتمر باندونغ عام1955، وبعده مؤتمر القاهرة عام1957 كل مقومات ثورة العالم الثالث إلا شرطا واحدا هو شرط انطلاق الشرارة الحضارية الفكرية لإضرام السياسي[3]، أي شرط تفعيل الحضاري كناهض ودينامو ورافعة للسياسي.

مثل آخر يدلل به الدكتور كوثراني هو المشروع الحضاري للمفكر مالك بن نبي، ففي نظره إن المشروع الحضاري المذكور لم يؤثر بالمشروع القومي الذي حمله عبد الناصر، كما لم يؤثر بعمل الإسلاميين، بل ظلت أفكاره حول القضية الحضارية في المشروع الإسلامي خارج دائرة التداول في أوساط الفعل والقرار السياسيين، واقتصرت على قلة من النخبة[4].

إذا فالافتقار إلى الشرارة الفكرية الحضارية التي تفجر برميل البارود، وتطلق قيم الروح، هذا الافتقار كان المقتل والمصرع.

كيف لا يكون ذلك، والحضارة هي العنصر الحاسم في أي انعطاف تاريخي، وهي روح الإنسان ولبه وماهيته وجوهره.

---

[1]- وجيه كوثراني: أفكار باحثة عن سمات حضارية في المشروع العربي الإسلامي، مجلة المستقبل العربي، عدد137، عام1997، ص34.

[2]- د.كوثراني: أفكار باحثة، ص35.

[3]- د.كوثراني، أفكار باحثة، ص35.

[4]- د. كوثراني: أفكار باحثة، ص34.

ثم كيف لا يكون ذلك، ونحن مسكونون في التراث، وهذا التراث جزء من المكونات النفسية للمجتمع العربي، وهو لايزال يحكم إلى حد بعيد سلوك الجماهير ويصوغ تصوراتها، ولايجوز التعامل معه كجسم ميت[1].

وفي نظرنا إن فشل الكثير من الصيغ السياسية في وطننا العربي مرده إغفال هذا الفاعل الحضاري، كما هو الحال في الفكر السياسي الاغترابي الذي لايقوم على الجذر التاريخي لأمتنا وقسماتها الحضارية.

ومن جهة أخرى فعلينا أن نعيد النظر بالمنطلقات الحية لباندونغ ودوائره المختلفة، ونحن مدعوون إلى ترتيب العلاقة مع الدائرة التركية والدوائر الإيرانية انطلاقا من ثوابت التاريخ والجغرافيا والمعطيات الجيوسياسية والجيو استرتيجية، لاسيما أن للدائرة الإيرانية موقفها الجذري تجاه المسألة الصهيونية، ولاسيما أن الدائرة التركية مبتلاة بالتغريب الكاريكاتوري الذي يقتلع الدولة من جذورها الحضارية، ويضعها في حمى الاستلاب والاغتراب والهجنة الثقافية.

إن وعينا الجديد يجب أن يهب من رقدته متوترا للقبض على مبادئ باندونغ وميكازماته والاستبصار بمغزى تعويل أمتنا على عمقها في الدائرة الإسلامية والدائرة الإفريقية والدائرة الأسيوية، بل بدائرة العالم الثالث.

وهذا ما أكده الدكتور سليمان الديراني بقوله: إذا كان الغرب يشهد بروزا سريعا وإقرارا أسرع بظاهرة ما بعد الحداثة كنقد لظاهرة الحداثة الغربية، فهذا بعني أنه من الضروري النظر في التجارب التحديثية لدول العالم الثالث من زاوية خلخلة التماهي بين التحديث والغرب، ومن ثم التفتيش عن القيم والمقاييس التي تعيشها دول العالم الثالث[2].

على هذا الأساس رفض الدكتور الديراني فكرة إلزامية التطور في العالم الثالث، وفق المراحل التي قطعها الغرب ما دام التطور الحداثوي في الغرب يحمل نفسه من التناقضات الداخلية ما يؤدي حكما إلى مرحلة جديدة "ما بعد الحداثة" مرحلة تضرب كل النسق الحداثوي الغربي كنسق عالمي، وتظهر كم من المراحل في هذا النسق هي خاصة بالتطور الذاتي للغرب، وليس ضروريا إعتبارها مراحل أساسية في تطور كافة المجتمعات.

ويلفت الدكتور الديراني الانتباه إلى ظاهرة اقتصادية عملاقة تشكل أنموذجا تنمويا فذا هو بلدان جنوب شرق آسيا "كوبا الجنوبية –تايوان –هونغ كونغ –سنغافورة –ماليزيا".

هكذا يرد الدكتور الديراني ذلك إلى الكونفوشية التي صاغت شخصية الفرد في تلك البلدان على مبادئ في العيش، والتوفير في الإنفاق، ومراقبة الذات والعمل الجاد والتعامل الأخلاقي والقيمي، أي على أساس اعتمادها الحداثة، وليس التحديث.

وإذا ما تذكرنا قولل "فيبر" إن الإصلاح البروتستانتي كان وراء الثورة الصناعية في أوربا أدركنا مدى الدور الذي يلعبه الرأسمال الرمزي في أي مشروع للنهضة، وأدركنا الدور الذي يلعبه

[1]- د. حسن حنفي: ورقة قدمت فيه إلى ندوة الفلسفة في الوطن العربي المعاصر: بحوث المؤتمر الفلسطيني الأول الذي نظمته الجامعة الأردنية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عام1985،ص16.

[2]-

مشروعنا الحضاري في تفعيل المشروع السياسي لما يتضمنه هذا المشروع الحضاري من قيم العقل وحب العمل وبهجة الحياة وعدم الإسراف والتفاؤل في الحياة: "إذا علم أحدكم أنه سيموت غدا وفي يده فسيلة فليغرسها" حديث شريف، واقتحام الحياة من أجل عمرانها: "فلا اقتحم العقبة...السابقون السابقون...سارعوا إلى مغفرة من ربكم...".

وفضلا عن ذلك فالمشروع الحضاري الإسلامي يقدم لنا استشرافا لآفاق العالمية، وبالتالي يدخلنا بها من أبواب عريضة ومتألقة، فيما ينطوي عليه من مبادئ، مثل مبدأ العدل والمساواة والتقوى وأصل الإحسان، وأصل الاستخلاف وعمران الكون والإيمان بالأصل المشترك للإنسان "خلقناكم من ذكر وأنثى"، وأصل الدعوة إلى كلمة السواء "تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم"، وأصل بذل السلام للعالم[1]، وأصل الخير الإنساني الشامل "أقربكم إلى الله أنفعكم لعياله"، وأصل عظمة النفس البشرية "صيانة الحياة"، وأصل الدين الواحد مع اختلاف الوسيلة "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا"، وأصل حقوق الإنسان في أول إعلان لحقوق الإنسان "وإن لك ألا تجوع فيها وألا تعرى "، وأصل الخيرية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس"، وأصل إعمار الأرض "هو الذي أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها"، وأصل رفع الظلم، وأصل الإصلاح كفايه للحياة الإنسانية "وأصلحوا ذات بينكم"، وأصل التنديد بالفساد "وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها"، وأصل العون "وتعاونوا على البر والتقوى"، وأصل العزة "ولله العزة".

هكذا اتضح لنا أن هذه الحضارة الإسلامية وفي قلبها الدائرة العربية تحتضن مخزونا ثقافيا وقيميا ما يجعلها تغني الحضارة الإنسانية، وبالتالي تكون أساسا لانتمائنا لها واستنادنا إليها في مشروعنا الخاص إضافة إلى المشروع الإنساني العالمي.

خاطب أحد المسؤولين في دولة إسلامية سفيرا لدولة عربية قائلا له: نظرنا إليكم، فوجدناكم تنظرون إلى غيرنا، ثم نظرتم إلينا فوجدتمونا ننظر إلى غيركم، فمتى يأتي الوقت الذي تلتقي عيوننا، وينظر بعضنا إلى بعض.

ونعتقد أن تلك النظرات العذراء تحولت على صعيد الدائرة العربية إلى عيون دافئة تمتلئ بالنعمة، وهذا ما استطاع أن يجترحه المؤتمر القومي الإسلامي الثاني حيث تضمن بيانه الختامي –فيما تضمن- حيزا هاما عن علاقة الأمة العربية شعوبا وحكومات بدائرتهما الحضارية والإسلامية[2].

لقد أكد هذا المؤتمر على الماضي الحضاري المشترك الذي تداخلت فيه، وتوحدت مصالح الشعوب الإسلامية بحكوماتها المتنوعة، بحيث أدى التفاعل الخلاق بينها إلى بناء صرح حضاري متميز أثرى الحضارة العالمية، وأسهم بنصيب وافر في تقدم الإنسانية، كما أن التداخل الخلاق والتكامل المستمر اللذين حدثا بين مكونات الأمة بمختلف أصولها العرقية ومواطنيها الجغرافية، قد تركا مكانهما شيئا فشيئا، ومنذ عقود طويلة، العلاقات المتميزة في الغالب إما بالعداء أو بالتوتر أو بالبرود في أحسن الحالات[3].

وتعرض المؤتمر إلى دور القوى الأجنبية المهيمنة في توسيع شقة الخلاف وتأزيم العلاقات، وكان ذلك في صالح أعداء العرب والمسلمين على حد سواء[4].

[1]-

[2]- نشرت هذا البيان الختامي، مجلة المستقبل العربي، عدد226، عام1997، ص79.

[3]- المرجع السابق، ص79.

[4]- المرجع السابق، ص79.

وأكد المؤتمر على أن أبسط قواعد المنطق تتطلب اليوم أن يتم السعي من الجانبين إلى إظهار الوعي الدقيق بضرورة تجاوز معطيات الصراع عن طريق بناء جسور الثقة بين الأطراف، وإرساء تقاليد التحاور والتضامن من أجل إعادة الحلقات المفقودة لضمان المصالح العليا للأمة والعربية والشعوب الإسلامية[1].

وتعرض المؤتمر إلى الدائرة التركية التي تتسم بخصوصية تاريخية في علاقتها بالأمة العربية، وفي الوقت نفسه فقد ميز بين ما تمارسه شريحة واسعة من النخبة الحاكمة في تركيا، وبين موقف القوى الشعبية التركية، وندد بالتعاون الفكري والسياسي القائم حاليا بين تركيا والكيان الصهيوني، والذي يشكل خطرا حقيقيا على الأمة العربية، ويتعارض مع ما يربط الأمة العربية وجيرانها الأتراك من روابط الدين والتاريخ والجغرافيا[2].

وأخيرا فقد لفت المؤتمر الأنظار إلى أهمية التعاون العربي التركي، وما يمكن أن يوفره من إمكانات متاحة على أكثر من صعيد[3].

وانتقل البيان إلى أهمية الدور الإسلامي الإيراني في قضية الصراع مع العدو الصهيوني، وفي مجابهة الامتدادات العسكرية الأجنبية على الأراضي العربية، داعيا إلى اندماج إيران والدول العربية والإسلامية في ترتيبات أمنية مشتركة ومستقلة تضمن أمن المنطقة واستقلالها[4].

وعرج البيان إلى الدول الإسلامية في وسط وجنوب شرق آسيا مؤكدا على أهمية توثيق العلاقات بين الأمة العربية والشعوب الإسلامية في وسط وجنوب شرق آسيا، وتعزيز الروابط والاستفادة من طاقات هذه الشعوب المادية والروحية في دعم قضايا الأمة[5].

وخصص البيان فقرة هامة للدائرة الإفريقية منبها إلى أن الرؤية الإستراتيجية للعلاقات العربية – الإفريقية تقوم على دواع حضارية وسياسية واقتصادية واستراتيجية[6].

واختتم البيان قوله بالحديث عن الجاليات العربية والإسلامية في العالم الغربي وأمريكا وإن هذه الجاليات تمثل العمق الإستراتيجي للعرب وقضاياهم المصيرية، وضرورة تحول الثقل الاقتصادي لهذه الجاليات إلى ثقل سياسي[7].

تقدير وتقييم:

تكلم الكثيرون –وفي ميادين فكرية متعددة- على أن الشرق شرق والغرب غرب.
فالشرق روحانية ووجدان وتدين، في حين أن الغرب نزعة مادية واستغلال وأنانية فردية وإلحاد.

---

[1]- المرجع السابق، ص80.
[2]- المرجع السابق، ص80.
[3]- المرجع السابق، ص80.
[4]- المرجع السابق، ص80.
[5]- المرجع السابق، ص81.
[6]- المرجع السابق، ص81.
[7]- المرجع السابق، ص81.

من هؤلاء المتكلمين بعض الأدباء والكتاب نذكر منهم في تراثنا العربي المعاصر توفيق الحكيم في "عصفور من الشرق"، ويحيى حقي في "قنديل أم هاشم"، وسهيل إدريس في "الحي اللاتيني"، وغيرهم[1].

ونعتقد أن هذه الفكرة أوروبية المنشأ والمحتد، ويمكن القول إن أول من استعملها الشاعر الإنكليزي لبلينج في مقولته الذائعة الصيت "الشرق شرق والغرب غرب"، ولن يلتقيا.

ومع ذلك فنحن لا نعدم بين ظهراني أمتنا وجود تيارات قومية ودينية تعتمد هذه المحاجزة الجامدة والتصنيف الصارم، وإن كان هنالك فريق ثالث يميز أمتنا بسمة خاصة هي الثنائية، أو الوسطية "زكي نجيب محمود ومحمد عمارة" التي تجمع الروحية والمادية[2].

ولعل أبرز الذين تكلموا عن هذه المحاجزة الكاملة بين الشرق والغرب، هو الدكتور أنور عبد الملك في كتابه ريح الشرق[3].

ففي نظره إن الغرب كتلة حضارية واحدة رغم ما تشتمل عليه من أنظمة اشتراكية ورأسمالية – وحركات عمالية وتقدمية- وهذه الكتلة تمارس الهيمنة ضد الشرق وحضارته، ولا يحاشي في ذلك الاتحاد السوفييتي الذي يقوم عمدا بتطويق حركات التحرر الوطني، كما فعل في أفغانستان وأثيوبيا وأنغولا وموزامبيق[4].

فالغرب إذا عند الدكتور عبد الملك هو الغرب بشقيه الرأسمالي والاشتراكي، فإيديولوجيته واحدة إنها الخرافة البروميثية نسبة إلى بروميثيوس سارق النار من الإله زيوس في الأساطير اليونانية القديمة، ورمز عقلانية العمل والإنتاج[5].
وينبري الدكتور عبد الملك لتحديد هذا الشرق، فهو عنده يتألف من ثلاث دوائر: الدائرة العربية الإسلامية، وتمتد من المغرب غربا حتى الفليبين شرقا، وتتخذ شكل الإسلام دينا ودولة، والدائرة الثانية هي الدائرة الحضارية الهندية الآرية، أما الدائرة الثالثة فهي الدائرة الصينية واليابانية الآسيوية.

هذه الدوائر الحضارية الثقافية الثلاث تختلف –في نظر الدكتور عبد الملك- اختلافا حضاريا وثقافيا مع الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي والاشتراكي، تختلف في مفهومها عن الزمن والصيرورة التاريخية، وترفض فكرة التناقض والتصارع، حيث يتم الحفاظ على النقيضين دون تفجير الصراع بينهما، كما هو الأمر في شأن الحضارة الغربية.

هكذا نجد ذلك –والحديث للدكتور عبد الملك- في فلسفة الصين التقليدية، كما نجده في الإسلام حيث تتحقق وحدة الأمة على عكس اللاهوت الكاثوليكي الذي نبعت منه محاكم التفتيش[6].

وحقيقة الأمر أننا مع الدكتور عبد الملك لجهة الحديث عن مشروع حضاري جديد للبشرية كوزان للمشروع الغربي يروض استئساده وجموحه، ويطفف من هوسه واستعلائه.

---

[1]- محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، الثقافة الجديدة، القاهرة، ط2، عام1988، ص212.
[2]المرجع السابق، ص212.
[3]- المرجع السابق، ص212.
[4]-المرجع السابق، ص212.
[5]-المرجع السابق، ص213.
[6]- المرجع السابق، ص191.

ويزداد تأييدنا للدكتور عبد الملك فيما يبثه من التفاؤل والحيوية والأمل في الشرق، وفيما نفخه في عروقنا من روح الكبرياء والكرامة والتفاؤل، لاسيما أنه وضع المشروع الحضاري العربي في قلب هذا المشروع الشامل[1]، وأعطى مفهوم الحضارة الشرقية مضمونا يتسع للقارة الإفريقية ولدول أمريكا اللاتينية، أو بتعبير آخر ليشمل دول عدم الانحياز ودول باندونج، أو ما يسمى بالعالم الثالث، حيث يكاد مؤتمر باندونج أن يصبح الرمز الحي /لريح الشرق/ للنهضة الحضارية الجديدة في مواجهة الهيمنة الغربية[2].

والذي يؤخذ على نهج الدكتور عبد الملك في هذا التكتل أنه حشد فيه أكواما من الدول ذات المناهج السياسية المتنوعة، منها الرأسمالي الصناعي المتطور /اليابان/، ومنها الاشتراكي /الصين/، إضافة إلى وجود دول نامية متعددة المشارب السياسية.

شيء جميل أن نتكلم على تلك الديناميات الحضارية، ثم الكشف عن ذلك التقارب، وعدم العداء التاريخي بيننا وبين الحضارتين الهندية والكونفوشيوسية، وضرورة وجود تفاعل حي وندي معها.

لكن الشيء الذي نرفضه الدعوة إلى أي استقطاب حدي يقوم على الهوس القومي والعرقي حتى الحضاري، كما فعل هنتنجتون في استعدائه الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية، مع العلم أن الحضارات لا تتصادم، بل أن الذي يتصادم هو الإيديولوجيات التي تكرس الحضارة ذريعة ووسيلة.

هكذا فإننا نختلف مع الدكتور عبد الملك لجهة التعامل مع الغرب تعاملا غير تاريخي بصيغة كتلة واحدة صماء لا تعرف التنوع والاختلاف والتفاعل والزمنية.
على هذا فالأصح أن نميز في الغرب بين القمح والذؤان، بين الطفل وغسيله، بين النوابت وغيرها، وبالتالي يجب أن لا يصدنا التعصب عن التعامل مع الضمير الغربي، بما يكفل رفع الشأن الإنساني العام، وتحقيق الشرط البشري المؤدي إلى كرامة الإنسان، وعندئذ –وفي إطار التوازن مع روحانية الشرق- تغدو العقلانية الغربية رافعة لإقلاع البشرية، وتغدو المادية الغربية ناهضا يقوم على المصلحة التي تحدث عنها الإسلام وضبطها وأدرجها في قلب أدبياته.

ومن جهة أخرى فلسنا ضد الدكتور عبد الملك في تأسيس السياسي على الحضاري، وفي تأكيده أن الإسلام ليس مجرد دين أو ثقافة، بل من الحكمة أن يبدع نظرية اجتماعية للصيغة الوطنية والتطور الاجتماعي والرخاء الجماهيري[3]، وشرطنا الوحيد في ذلك أن لا يطغي الإسلام السياسي على غيره، أي لا يكون المنبر الوحيد، بل أن يتاح بآلية الديمقراطية والإطار الحضاري الإسلامي –لجميع التيارات السياسية الإسلامية وغيرها أن تتنافس وتنفتح، وتتلاقح سواء أكانت اشتراكية أم ليبرالية أم نابعة من الحضارة الإسلامية أم غيرها[4].

إن قوة النص القرآني هو انفتاحه على كافة احتمالات الحياة والصيغ والنظم والاتساق، وإن الحديث عن صيغة واحدة سياسية أم غيرها، إنما هو ابتسار للنص وليّ عنقه، وإن حضارتنا المتفتحة أعطت الشيء الكثير عندما تكلمت على النص على أنه موار بالحركة والعطاء، على هذا الأساس فإننا نرفض أية صيغة اجتماعية أو وطنية تدعي أنها الوحيدة التي تتكلم باسم الإسلام.

[1]- المرجع السابق، ص191.
[2]- الرجع السابق، ص192.
[3]- المرجع السابق، ص192.
[4]- نلاحظ أننا استقينا هذه المعلومات من الأستاذ أمين العالم،ولكننا خالفناه في الرؤية، انظر المرجع السابق، ص193.

وأخيرا فإنني أنعي على الدكتور عبد الملك تبسيطه للإشكالية العربية الإسلامية، وعملقتها –وهي لما تزل في الحالة الجنينية- بل وصفه لها /بريح الشرق/ جاعلا هذه الريح تهب باتجاه الغرب في نظرة استقطابية حادة.

والسؤال المطروح هو: أين هذه الريح من تلك العاصفة الهوجاء الصرصر التي تشنها أمريكا وحلفاؤها على شعبنا في العراق.

وأخيرا تحدث الدكتور عبد الملك عن سماحة الإسلام كأساس للحياة، وكان عليه أن يتحدث عن مضمون برنامجي ينبثق عن هذا التسامح، كحقوق الإنسان والشرط البشري والكرامة الإنسانية والتضامن الدولي، وكلمة السواء بين الشعوب.

إن الأمة الإسلامية وغيرها هي مجموعة من العرى والشرايين والروابط والعروق وبنى الربط ومسارب الحياة والدورات الدموية التي تشد أفراد الأمة، وبالتالي فلا يمكن الحديث عن أمة إسلامية إلا بقدر ما تتخلق مثل هذه الروابط، وإلا نكون قد تكلمنا على الإنسان المرتكس المنتكس الذي يمشي على رأسه.

إن الأمة –كما هو معلوم- هي شكل أو طور من أطوار الحياة الاجتماعية، لكنها الشكل الأنضج تكاملا وترابطا وتماسكا، وعلى هذا الأساس فلا يمكن الكلام جوهريا عن أمة تسبح فوق التاريخ، أو هابطة من الملأ الأعلى، بل هي وليدة التجارب والأحداث والصيرورة، وكلما ترابطت الأمة، كلما ازدادت قوة ومنعة أمام حدثان الزمان، وازداد بالتالي عطاؤها وأريجها.

واستنادا إلى ما تقدم فإذا كان الغرب يسعى إلى ترويض ذلك العالم الإسلامي الجبار واقتلاعه –وما مشروع فوكوياما وهنتنجتون إلا أحد مظاهر ذلك الاقتلاع- بوسائل وأشكال مختلفة، إلا أن بإمكان هذا العالم أن يكون جبارا –وهو جبار- حسب نظرية مكونات الدور.

أن يكون جبارا ليس بالكمون، وإنما بالفعل، وذلك بالآليتين الآتيتين:
1 - آلية دفاعية عن طريق ما ندعوه محاصرة الحضارة أي مواجهة الطوق المفروض على بلدان العالم الإسلامي في ميادين التجارة، الاستثمار، الإنتاج، التكنولوجيا، المعلومات، الإعلام، الثقافة.
2 - بآلية إيجابية عن طريق التكامل الإسلامي في شتى ميادين الحياة، تعاملا يعلي الشرط الإنساني ويثري الحياة الدولية، ويرسخ كرامة المواطن وحياته ومستقبله.
وحقيقة الأمر أن أمتنا العربية تقف اليوم موقف الحيرة والتشكك أمام ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي في حقيقته –كما قال تشومي- نظام العالم الجديد، وفضلا عن ذلك فهي لم تشارك في النظام العالمي القديم، بل كنا فقط موضوعا له، ومع ذلك فأمتنا تعيش هاجس الحنين للنزوع الكوني والعالمي الذي ميزها منذ بزوغها في القرن السابع الميلادي، حيث قامت الدولة والأمة في المدينة على فكرة الاستيعاب التي تفترض الاختلاف والتعددية وقبول الغير[1].

لقد كان لهذه الأمة منذ ولادتها في المدينة مشروعها الكوني، هو الإسلام، وكان هو مسوغ نشأتها، وعلى الأرجح ما كان ممكنا ولادة هذه الأمة وتطورها لولا ذلك المشروع الكوني الذي دفعها على الدوام إلى تجاوز نفسها، من خلال دعوة تعتمد الدمج الاجتماعي "لا الفتح" وسيلة لها، وتعطي الأولوية للإنسان "المجتمع" على الدولة" المؤسسات"[2].

[1]- الفضل شلق: عودة إلى مفهوم الأمة غير القومية، مجلة الاجتهاد، عدد29، عام1995، ص5 وما بعدها.
[2]- الفضل شلق: الانخراط في العالم، مشروع الأمة غير القومية، مجلة الاجتهاد، عدد26 و27، عام1995، ص9 وما بعدها.

ولم يكن هذا الدمج ممكنا إلا لأن الشعوب المغلوبة ساهمت في المشروع مساهمة كبيرة، ومن ثم فلم تفرض على تلك الشعوب ثقافة العرب، بل تكونت ثقافة جديدة أسهم فيها الجميع.

وهذا ما يفسر الفكرة الاستراتيجية العربية في مطالع هذا القرن.. فكرة الوحدة، وهذا هو معنى الالتفاف حول جمال عبد الناصر بعد مؤتمر باندونغ، فالفكرة العربية عند روادها فكرة عالمية ومؤتمر باندونغ، وعدم الانحياز، معناهما عودة أمتنا للمشاركة في حضارة العالم ومصائره[1].

أجل لقد تعددت محاولات النهوض، ولكن هذا النهوض لن يحقق نتائجه المرجوة إلا إذا تجاوز الواقعية المبتذلة ليسير الحقائق التاريخية وصولا إلى روح الأمة والتفتيش في حنايا الهوية التاريخية، حيث يصاغ مفهوم قومي للأمة العربية يتفق مع تراثها التاريخي، وليس مع المفهوم الأوربي للقومية[2].

لقد كانت الأمة خلال مختلف مراحل تاريخها مجتمعا مفتوحا يستوعب غير المسلمين، كما يستوعب الشعوب الوافدة، وكان هذا المجتمع على استعداد دائم للتوسع خارج حدوده الجغرافية، وغالبا ما كان هذا التوسع يتم بتأثير الدعوة لا بالغزو والسلاح، ومن ينظر إلى العالم الإسلامي يجد أن جزءا كبيرا منه اعتنق الإسلام في فترات الضعف والتراجع.

على هذه القسمات الثابتة والرواسي الراسخات للهوية...فإن الانخراط في العالم دعوة لإنقاذ النفس لأن العزلة هي الاستسلام والهزيمة والكارثة.

إن الانخراط في العالم يستدعي بلورة مفهوم الأمة غير القومية، الأمة التي تبقى منفتحة على العالم وترفض أن يتجدد تطورها في إطار جغرافي محدد أو حتى في إطار ذهني وفكري مطلق.

وما حققت هذه الأمة بقاءها خلال مختلف مراحل تاريخها إلا لأنها كانت مجتمعا مفتوحا قادرا على الدمج والاستيعاب والتجاوز.

إن مفهوم الأمة غير القومية لا يعني التخلي عن مبدأ الوحدة، بل إن توحيد الأمة شرط ضروري كي تستطيع استخدام الإمكانات المتاحة[3]، وبالتالي الانطلاق في عالم أرحب.

ليست هذه الأمة عرقا ولا أثنية ولا قوما ولا قبيلة، بل هي صيرورة تاريخية، وكانت على الدوام في مختلف مراحل التاريخ مجتمعا مفتوحا يستوعب أو يدمج في إطاره الشعوب والأقوام والقبائل الوافدة المنطوية تحت لوائه، وعندما تواجه إشكالية المواجهة بين الانطلاق القومي والمشروع الكوني، كانت تختار هذا الأخير، حتى لو كان على حساب موقع العرب من السلطة[4].

لقد فهمت الجماهير العربية ذلك، وكانت تتعاطف مع عبد الناصر صاحب فكرة الدوائر الثلاث "العربية- الإفريقية- الإسلامية" أكثر بكثير مما كانت تتعاطف مع الحركات القومية[5].

---

[1]- الفضل شلق: الانخراط في العالم، مشروع الأمة، ص9 وما بعدها.
[2]- الفضل شلق: الانخراط في العالم، المرجع السابق، ص12.
[3]- الفضل شلق: الانخراط في العالم، ص17.
[4]- الفضل شلق: الانخراط في العالم، ص17.
[5]- الفضل شلق: الانخراط في العالم، ص19.

إن أمتنا أمة عظيمة تحقق نفسها عندما تتجاوز نفسها، لذلك فهي قادرة على أن تكون صاحبة مشروع كوني في العالم بكل ثقة، وإن منطق الحركات القومية الذي يقول للغرب نحن نسعى لأن نكون مثلكم، لكنكم تتآمرون علينا، هو منطق دفاعي، كذلك منطق الإسلاميين الذين يعادون العالم ويسعون لانغلاق الأمة على نفسها، إنه منطق يعلن سلفا أن لا قدرة لنا على تجديد المشروع الكوني، وعلى التعاطي بكل ثقة مع العالم[1].

إن أمتنا مشروع كوني، وليس كيانا اندماجيا قسريا سواء أكان هذا الاندماج بالمفهوم الديني أم بالمفهوم العرقي، ومن ثم فبمقدار ما نعتبر أنفسنا صيرورة تاريخية قابلة للتغيير والتحول، بقدر ما يفسح أمامنا المجال لإضافة مضامين جديدة ومفاهيم حديثة، وهذه المضامين تجعلنا أكثر قدرة على البقاء والديمومة وأكثر قابلية على استيعاب عناصر وموجات بشرية جديدة.

لقد وضع الرسول/ص/ اللبنة الأولى في مفهوم الأمة عندما قال إن لحمة الولاء كلحمة النسب، وعندما أكد أن العربي ليس الذي ولد من أب عربي، بل من تكلم العربية.

ليس هنالك أخطر على المشروع الحضاري القومي الوحدوي لأمتنا من أن يساء فهمه، وينظر إليه كمشروع هيمني يحقر من قيمة المعتقد الديني، ويعلي من شأن الأصول العرقية[2].

إذا كان المسلمون من غير العرب يعتقدون في دين تزعمه العرب، ونزل بلغة العرب، واستعمل ثقافتهم وأعرافهم، فإن أهل هذا الدين من حقهم التعامل معه كجزء ماهيتهم، كعنصر يعزز وحدتهم، كأمر طبيعي يشكل القاعدة التربوية والأخلاقية التي يقوم عليها البنيان السياسي والاقتصادي والمجتمعي والثقافي[3].

لقد اعتبر أحدهم العرب النسق الأبرز في النسق الإسلامي العام، فلماذا ترفض أمتنا هذا الموقع الذي حباها إياه تاريخنا المجيد، أي لماذا نرفض زعامة ألف مليون من البشر، قال تعالى: "إنه لذكر لك ولقومك ولسوف تسألون".

والخلاصة إذا أردنا أن نؤسس للسياسي العالمي الكوني، فلن يكون ذلك إلا على أساس الحضاري الذي هو استمرار لمشروعنا العمراني الحضاري التاريخي، وهذا ما يحفزنا لتحديد علاقة دقيقة ومنطقية وحية مع دائرتنا الحضارية كبوابة أولى أساسية للعبور إلى الصعيد العالمي.

[1]-الفضل شلق: الانخراط في العالم، ص18.
[2]- تحديد الفكر الديني، مقدمة مجلة الوحدة، عدد13، عام1985، ص6.
[3]- مقدمة مجلة الوحدة، المرجع السابق، ص6.